صياغة الحلي الشعبية في شبه الجزيرة العربية

Folk jewelry making in the Arabian Peninsula

الباحثة/ حليمة عبدالله راشد محمد

بكلوريوس تربية جامعة الامارات تخصص تربية

Researcher Halima Abdullah Rashid Mohammed

Bachelor of Education, United Arab Emirates University, specializing in Education

rbdanheritage@gmail.com

لقد ترك لنا الأسلاف من أجدادنا الكثير من التراث الشعبي الذي يحق لنا أن نفخر به ونحـــــــافظ عليه ونطـــوّره ليبـــقى ذخراً لهذا الوطـــن وللأجيال القـــــادمة.

زايد بن سلطان آل نهيان

الملخص:

1. تعزيز الوحدة الثقافية والتراثية لدول شبه الجزيرة العربية، وذلك من خلال دراسة تفاصيل حرفة صياغة الذهب في المنطقة، وذكر التشابه بين منتجات الصاغة في شبه الجزيرة العربية، الناتجة من الوحدة الجغرافية والحضارية والدينية واللغوية والثقافية لدول شبه الجزيرة العربية، وتوثيق مسميات منتجات الصاغة من الحلي المختلفة، والكشف عن التنوع في إخراج المنتجات في ورش الصاغة من سيوف وخناجر وحلي نسائية وأدوات نفعية، وزينة الخيول والجمال وسروجها المزينة والمصنوعة من الذهب والفضة والتي تعزز الوحدة الثقافية والتراثية لمنطقة شبه الجزيرة العربية .

2. توثيق حرفة صياغة الحلي التقليدية، والتي كشفت التنوع في منتجات الصاغة في شبه الجزيرة العربية. والمؤسف إن منتجات الصاغة من الحلي التقليدية قد طمست في المجتمعات بشكل عام، وذلك بسبب إذابة الحلي القديمة التي أُنتجت يدوياً في ورش الصياغة التقليدية، واستبدالها بالنماذج الحديثة والمصنَعة بواسطة المكائن والتقنيات الحديثة، ما أفقدها القيمة الفنية والحس الفني النابع من العمل اليدوي والعناء الذهني في تكوين تصاميم الحلي القديمة. لذلك كان من الواجب علينا توثيق

حرفة الصياغة التقليدية في دراستنا، التي استهدفت توضيح ودراسة التقنيات اليدوية لإنتاج المصاغ التقليدي والفنون الزخرفية التي نُفذت بها.

3. الكشف عن المهارة اليدوية والمخيلة الفنية للصاغة في شبه الجزيرة العربية ودقة التقنيات اليدوية، التي مارسوها للحصول على قطع فنية من الحلي والتحف الجميلة، حيث اهتمت المراجع والكتب المتخصصة في مجال الحلي بذكر أسماء الحلي التي تقتنيها النساء، دون توثيق التقنيات والجانب الفني لإخراج تلك الحلي، أو ذكر دور الصاغة في إنتاجها، مما ساهم في طمس أسماء الصاغة وأعمالهم وجهودهم التي انتهت رحلتها في الأفران لإعادة تذويبها وإخراج حلي جديدة.

4. توثيق أسماء أشهر الأسر والعائلات التي تخصصت في صياغة الحلي الشعبية، وكيفية انتقال الحرفة من الآباء إلى الأبناء، في سلسلة زمنية متواصلة دون انقطاع ما يقارب القرنين من الزمن، حيث كان جل اهتمام المؤلفين والمؤرخين عبر العصور التركيز على مسميات الحلي وأشكالها وأنواعها. ولعل هذا أحد الأسباب التي أدت إلى تهميش دور الصاغة في شبه الجزيرة العربية، وتهميش الأسر التي تخصصت في تزيين وزخرفة تلك المنتجات التي اتصفت بجمال إخراجها.

الكلمات المفتاحية:
نكلس ، وكردانه،وكردانه

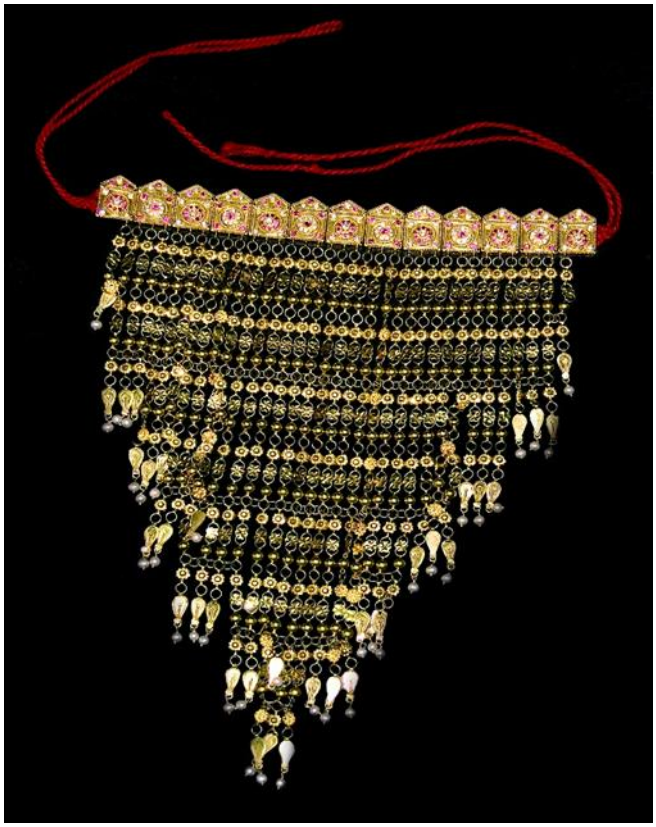

دوافع البحث:

هناك مجموعة من الدوافع أو الأسباب المتداخلة التي جعلتني أُقدم على هذا المشروع البحثي ومن أهمها ما يلي:

- البعد الوطني: ويتمثل في توثيق التراث الإماراتي والخليجي وحفظه وإحيائه، نظراً لأهمية الصناعات الحرفية من الناحية الوطنية والتراثية على صعيد الفرد والمجتمع والدولة، ومما لا شك فيه أن دراسة تقنيات صياغة الحلي التقليدية تتطلب إلقاء الضوء على أهمية توثيق حرفة الصياغة في شبه الجزيرة العربية، وإمكانية تنميتها مستقبلاً، لتظل رافداً تراثياً واقتصادياً،

لما لها من معانٍ رمزية وأبعاد في تشكيل الثقافة التراثية المعنوية، الأمر الذي يتطلب نقل الخبرة إلى الأجيال، والكشف عن إنجازات أجدادهم في إنتاج نماذج من الحلي التي تضاهي مثيلاتها في الدول الأخرى.

- الارتباط الأسري: إن الروابط الأسرية للباحث مع الحرفيين أو الأشخاص الذين كانوا محور حرفة صياغة الذهب مهدت له ومنحته فرصاً ينفرد بها عن الباحثين الذين انتقلت إليهم الحكايات والمعلومات العلمية أو التاريخية من الآخرين. فكوني فرداً من تلك الأسرة الحرفية التي امتهنت حرفة صياغة الذهب، وعشت وتفاعلت مع تفاصيل حرفتهم المتوارثة ومنتجاتهم الثمينة وأدواتهم المتنوعة، توَجب عليّ حفظ تاريخهم العريق في حرفتهم التي تتصدر جميع الحرف اليدوية على مر الزمان، لاعتمادها على المعادن الثمينة لصنع منتجاتهم، حيث عَرفت أُسر عدة في دولة الإمارات حرفة صياغة الذهب منذ القدم، ومن بين هذه الأسر، عائلة محمد الصايغ وعائلة عبد الرحمن الصايغ، ولعل ذلك من أهم العوامل التي دفعتني للبحث في هذا الموضوع، إذ نُسبت هذه العائلة لهذه الحرفة التقليدية، لأن أبناءها مارسوها جيلاً بعد جيل، وتناقلوا فيما بينهم مهاراتها رغم التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها المنطقة. ولقب الجد محمد بالنعبي نظراً لدقة الزخارف التي كان ينفذها على المصاغ الذهبي والفضي، والتي يطلق عليها النقش النعبي، حيث تميزت الحضارات العربية والإسلامية بمسميات من الزخارف التي كانت تتميز بالدقة أو بخصائص ووحدات فنية مميزة انتقلت بين الأجيال لتثبت عراقتها وأصالتها وتميزها.
  - الاستفادة من الكنوز البشرية: تمثل دراسة حياة الصاغة النهج الصحيح للتعرف على من تسميهم منظمة اليونيسكو اليوم بـ «الكنوز الوطنية» national treasures، إذ إن هؤلاء الحرفيين التقليديين المعدودين في المجتمع يمثلون بشخوصهم معارف وقدرات ومهارات فنية فريدة، وقيمة مثّلت جزءاً مهماً من تراث الأمة وصيرورتها التاريخية. فتعتبر العوائل التي تخصصت في هذا المجال من الكنوز البشرية، ومن المؤسف أن أغلب الصاغة من تلك الأسر قد فارقوا الحياة، ولم يبق منهم غير الأبناء والأحفاد الذين يجهلون تاريخ أجدادهم العريق.
  - البعد التاريخي والاجتماعي: لهذا تكمن فائدة طريقة دراسة تاريخ الحياة بأنها تتخطى قيمة جمع معلومات محددة، خاصة بأحداث أو تقاليد أو مناشط معينة. إلى أنها تلقي الضوء على الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي مرت به شعوب معينة في فترة زمنية محددة. ويبرز الفرد في هذه المنهجية متكاملاً مع ثقافته ومجتمعه بصورة فريدة، فمن خلالها يمكننا أن نرى كيف تنتظم بعض الحقائق وتتسق عبر سيرة حياة فرد أو عائلة أو جماعة معينة من الناس، كما تساعد هذه المنهجية في الكشف عن التفاعل بين الفرد وثقافته، وفي كشف السيرة التاريخية للفرد، وكيف أثرت أحوال المجتمع والثقافة في حياته، متمثلة في حراكه الجغرافي والاجتماعي، وقيمته تجاه ثقافته وبيئته، وكيف تفاعل وتكيّف مع المواقف والمؤثرات التاريخية الكبيرة، ومن زاوية أخرى يساعدنا هذا المنهج في معرفة الطرق والأساليب التي يؤثر فيها الفرد في مجتمعه.
- البعد المهني والتقني:

يهدف البحث الكشف عن التقنيات اليدوية والمهارة الفنية للصاغة، التي مارسوها في الورش التقليدية لصناعة الحلي الشعبية والتحف الثمينة في شبه الجزيرة العربية، حيث ساهم التزاوج الحضاري وانتقال أساليب وفنون الزخرفة اليدوية إلى تشابه تلك التقنيات في جميع الحضارات الإنسانية، ويكشف لنا الفصل الرابع، والذي يعتبر ورشة حية تقليدية عن التقنيات التي مارسها أجدادنا الصاغة، بأدواتهم التقليدية البسيطة، لصنع نماذج من الحلي والتحف تعجز الآلات الحديثة عن تقليدها، فالبحث يتفرد عن أمثاله من البحوث، كونه بحثاً تخصصياً في حرفة صياغة الحلي، كما يتصف بالشمولية، وأنه يغطي جميع نواحي حرفة صياغة الذهب، ويعرض جميع محتويات الورش التقليدية من معادن ثمينة وأدوات متنوعة، ومواد كيميائية وغيرها، تسرّع وتبطئ من عملية الإذابة واللحام، ومواد يوظفها الصائغ كمعايير تحدد جودة ونقاء المعادن، وعملات ذهبية وفضية مثّلت الوحدات الفنية وأجزاء الحلي، خلّفتها الحركات السياسية والاقتصادية والتبادل التجاري مع دول العالم.

منهجية وأساليب جمع مادة البحث

عملية توثيق الحياة الحرفية للصاغة والناتجة عن تنقلاتهم، تهدف الكشف عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة العربية وتقاليدها وفنونها، التي تمثل مجتمعة جزءاً من الموروث التراثي للأمة، هو ما دفعني لتدوين سيرة حياة الصاغة وقصصهم، معتمدة بذلك على منهجين أو طريقتين معاً في جمع المادة ذات الصلة بموضوع البحث.

- الأولى تُعرف بمنهجية تاريخ الحياة life history approach
- والثانية طريقة الملاحظة بالمشاركة أو المعايشة الميدانية participant-observation

التي يستخدمها الاثنروبولوجيون ومن ماثلهم على نطاق واسع في دراستهم الاثنوجرافية الوصفية للثقافات الإنسانية.

إذ تم جمع المادة التاريخية والأثنوجرافية لهذا البحث بالاعتماد بشكل أولي على هذين المنهجين معاً. كما جاءت المراجع والمصادر المكتبية الأخرى مكملة لهاتين الطريقتين المنهجيتين.

1. الملاحظة بالمشاركة participan – observation (المعايشة): ويقصد بها معايشة الباحث وتفاعله المباشر مع الأشياء والأفراد موضوع البحث. حيث ساهم تواجدي في الورش المنزلية لحرفة صياغة الحلي في السبعينيات من القرن العشرين إلى بداية القرن الحادي والعشرين، التي ختمت بها حرفة أجدادي، في اختزان تفاصيل الورش في ذاكرتي والمعلومات التقنية والفنية والمشاهدات العملية أثناء صياغة الذهب في ورشة والدي الصائغ عبدالله راشد محمد وعائلته الحرفيين، الأمر الذي ساعدني في تقديم وصف ثري في تفاصيله الاثنوجرافية والإنسانية. كما ساهمت جلساتي العائلية برسم صورة بانورامية عن تاريخهم وسيرهم، وأهم الحكايات والأحداث التي مروا بها، وجسدت الحياة الاجتماعية بكل صورها بجانب الحياة المهنية التي هي محور دراستنا.

وهذا هو العامل الرئيسي الذي دعم نجاح موضوع البحث، حيث حاولت جاهدة أن أدوّن الصور الذهنية التي تعايشت معها في ورشة، المغفور له بإذنه تعالى، والدي الصائغ عبدالله راشد محمد، الذي قدّمَ لنا أدواته ومنتجاته لدراستها قبل رحيله.

2. منهج تاريخ الحياة life-history- approach: تستخدم سيرة الحياة أو تاريخ الحياة في الدراسات المتصلة بكل العلوم الإنسانية. فنجدها تستخدم في دراسات علم النفس والعلوم الاجتماعية، على الرغم من الأهداف المختلفة الخاصة بكل علم وبكل دراسة. ففي الدراسات التاريخية مثلاً، يستخدم بعض المؤرخين الشخصيات الريادية في مجالات مختلفة بصفتها طريقة للكشف عن الأحوال التاريخية الواسعة، التي قد أثرت في تشكيل أحوال تاريخية كاملة، في فترة زمنية محددة، حيث إن القصص التي عاشها الصاغة كشفت العديد من أحوال الحياة في المجتمع الإماراتي والخليجي.

لذا تكمن فائدة طريقة دراسة تاريخ الحياة في أنها تتخطى قيمة جمع معلومات محددة، خاصة بأحداث أو تقاليد أو مناشط معينة؛ إلى أنها تلقي الضوء على الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، الذي مرت به شعوب معينة في فترة زمنية محددة. ويبرز الفرد في هذه المنهجية متكاملاً مع ثقافته ومجتمعه بصورة فريدة، فمن خلالها يمكننا أن نرى كيف تنتظم بعض الحقائق وتتسق عبر سيرة حياة فرد أو عائلة أو جماعة معينة من الناس.

كما تساعد هذه المنهجية في الكشف عن التفاعل بين الفرد وثقافته، وفي كشف السيرة التاريخية له، وكيف أثرت أحوال المجتمع والثقافة في حياته، متمثلة في حراكه الجغرافي والاجتماعي، وقيمته تجاه ثقافته وبيئته؟ وكيف تفاعل وتكيّف مع المواقف والمؤثرات التاريخية الكبيرة؟ ومن زاوية أخرى يساعدنا هذا المنهج لنتعرّف على الطرق والأساليب التي يؤثر بها الفرد في مجتمعه.

وبالطبع يعتمد النجاح في استخدام هذه الطريقة على جمع المعلومات، لوجود علاقة ثقة وطيدة وحميمة بين الباحث والإخباري، الذي سيستشعر وقتها بارتياح وهو يقدم معلومات دقيقة وخاصة في جزئياتها وتفاصيلها. ومما لا شك فيه أن

موقع الباحث من الإخباريين أو مجتمع البحث، أو علاقته الخاصة بهم، يؤثر كثيراً في فعالية استخدام هذه الطريقة ومدى نجاحها وجدواها في جمع البيانات الملائمة والمفيدة للدراسة.

3- رصد وتوثيق تواريخ الحياة للأسر المعنية

تم ذلك من خلال إبراز الحرفيين الصاغة بصفتهم كنوزاً بشرية. ومن ثم الكشف عن تواريخ حياتهم Life- Histories ونمط حياتهم في تكوين الورش المنزلية والتعاونيات الأسرية في إنتاج المصاغ. وسنقوم في هذا العرض بتسليط الضوء على التقنيات التي مارسوها في ورشهم، من خلال المعلومات التي نُقلت عنهم شفهياً من أقاربهم وأبنائهم، أو تلك التي تم الحصول عليها من خلال معايشتي لوالدي وأقاربي الصاغة، ومقارنتها بالتقنيات العالمية التي وثقت في المراجع الخاصة في هذا المجال.

وباختيارنا لطريقة دراسة سير الحياة للعائلات التي مارست هذه الحرفة، نتمكن من كشف صور للحياة اليومية في الورش المنزلية، والجوانب الاقتصادية والاجتماعية، باعتبارها نوافذ وشواهد على العالم الذي تشكلت فيه الحرفة وأصحابها، الذين كرّسوا جل اهتمامهم ووقتهم لإخراج نماذج من الحلي الشعبية الجميلة.

4- إجراء المقابلات

بادرت في أول خطوة لإعداد دراستي عن حرفة صياغة الذهب والحلي التقليدية في شبه الجزيرة العربية، برسم خطة لمقابلة الصاغة وأصحاب محلات الذهب، والنساء اللاتي لهن خبرة بمسميات الحلي المختلفة، لجمع أكبر قدر من المعلومات الدقيقة، رغم الاختلاف في بعض مسميات الحلي، إلا أننا وثقنا التفاصيل بدقة ومصداقية علمية، لكي تكون مرجعاً للمهتمين بهذا الجانب. (1)

فالمقابلة حوار ثقافي بين طرفين: الباحث، والإخباري الذي هو مصدر المعلومات التي تخص موضوعاً ما من الموضوعات البحثية. وتكمن فائدة المقابلة بأنواعها المختلفة، في أنها توفر للباحث مادة غنية لا تكشف عنها عادة الملاحظة بالمشاركة التي تتهيأ للباحث نتيجة المعايشة المطولة في المواقع الميدانية. لذلك قمت بمقابلات فردية كثيرة مع جميع من عملوا بحرفة الصياغة التقليدية، ومع من تاجروا بالمصاغ التقليدي أو ساهموا في دعم إنتاج هذه الحرفة التراثية التقليدية، ومع أصحاب الحلي والمقتنيات التي كانت إضافة مهمة للبحث، لأهمية المعلومات والمقتنيات في إثراء موضوع البحث. وكانت تلك المقابلات من نوع المقابلات الفردية individual interviews أو المقابلات الموجهة directed interviews.

5- الزيارات الميدانية:

<u>زيارات ميدانية للمتاحف:</u> المتاحف في دول العالم تمثل الحاضنات والمخازن لحفظ القطع التي تحمل القيمة التاريخية والتراثية والعلمية أيضاً، ومرجعاً مهماً للباحثين لإجراء الدراسات بمختلف أنواعها، فهناك متاحف شخصية وأخرى وطنية، وهناك العديد من العوامل السياسية والتجارية والثقافية والعلاقات الدولية، التي تساهم في انتقال القطع التاريخية والتراثية والثمينة لسلسلة المتاحف في العالم، والجدير بالذكر في هذا السياق أن أغلب مقتنيات المتاحف المصنوعة من المعادن تندرج تحت قائمة منتجات الصاغة عبر الحقب التاريخية، كما تكشف المقتنيات المتحفية المعدنية تطور التقنيات اليدوية في الحضارات القديمة.

زيارات ميدانية للورش التقليدية:

اندثرت الورش التقليدية بسبب اجتياح عالم التكنولوجيا والآلات؛ التي عوضت المصانع عن النمط التقليدي في إنتاج المصاغ، وبقيت بعض الشواهد صامدة رغم حجم التحديات التي يواجهها أصحاب تلك الورش التقليدية في شبه الجزيرة العربية، ليستعين بها بعض الصاغة الآسيويين الذين تتلمذوا في ورش الصاغة في المنطقة وتمثل لهم مصدر دخل ثابتاً، ندرة الورش التقليدية بعد وفاة أغلب الصاغة لم تعق رحلتنا للبحث وجمع المعلومات الأساسية في تاريخ حرفة الصياغة اليدوية.

زيارات ميدانية لمحلات الذهب:

تتبع خارطة حرفة صياغة الذهب ومنتجات الصاغة يُحتّم على الباحث في هذا السياق زيارة محلات الذهب، التي تنتهي إليها رحلة نتاج أعمال الصاغة، وعرض المنتجات الثمينة والمتنوعة يكشف لنا العديد من المعلومات التي تضاف إلى البحوث الخاصة لحرفة صياغة الذهب، ويكشف مراحل تطور الحلي والنماذج في ورش الصاغة، ويزوّد البحوث بالصور الحية التي تدعم المعلومات في المحاور المختلفة - وتزخر الأسواق في شبه الجزيرة العربية، وخاصة في إمارتي دبي والشارقة بالعديد من نماذج أعمال الصاغة - ويكشف أيضاً تأثير الازدهار الاقتصادي والوفرة المالية في المنطقة، التي صاحبها اكتشاف النفط والازدهار الاقتصادي، بالإضافة إلى العديد من المعلومات التي تثري البحوث والباحثين في هذا السياق.

البحث المكتبي:

لا تكتمل صحة ومصداقية الأبحاث العلمية والدراسات دون الاستناد إلى المراجع العلمية لتزويد الباحث بالمعلومات التي تعزز وتؤكد مصداقية ما يقدمه للقارئ، فالبحوث التي لا تستند إلى مراجع ولا تعتمد على منهجية عليمة لا يمكن إثبات صحة ومصداقية محتواها العلمي، أسهم البحث المكتبي في المصادر والمراجع في توفير معلومات مهمة حول موضوع حرفة صياغة الذهب في الحضارات العالمية.

وتم اختيار المادة المكتبية من مصدرين أساسيين هما:

- المراجع والمصادر: لا سيما تلك المراجع المتوفرة بصورة كافية في المكتبات، التي تقدم خدمات كبيرة للباحثين الأكاديميين والمختصين والمهتمين، من خلال ما تحتويه من المصادر التاريخية المهمة، والمخطوطات النادرة، إضافة إلى المراجع المختصة بدراسة الصياغة اليدوية في الأقاليم الإسلامية، التي كشفت الكثير من المعلومات والحقائق العلمية والتاريخية، وتم ربطها ومقارنتها بحرفة الصياغة في الورش التقليدية في دولة الإمارات، التي لم تخصص لها مراجع تقنية أو فنية تكشف أسرار الحرفة.
- الوثائق: أسهمت بعض الوثائق التاريخية البريطانية للإمارات في إثبات عراقة حرفة صياغة الحلي التي مارسها الصاغة، كما كشفت صحة ما تناقله الإخباريون من معلومات، بجانب ذكر بعض مسميات الحلي التي أنتجوها ومواصفاتها التقنية والفنية.

- مشكلة البحث

صاغوا خَـتِمْ وجَبايرْ[1] والدّين أدَّوا عَنَّهْ
وانْتَه وسْطْ الغَزايرْ في اخْطارٍ مَمْتَحنَّه. جويهر الصايغ

شهدت منطقة شبه الجزيرة العربية على مدار تاريخها حضارة متميزة في جميع المجالات لموقعها بين الشرق والغرب، فكانت حلقة اتصال أكسبتها مكانة وشهرة وجعلتها مصباً لمزيج من الحضارات العالمية، التي بلورت تاريخها وأكسبتها هوية خاصة، ولا سيما الأثر الإسلامي الذي خلق مجتمعاً صُبغ بنزعة عربية إسلامية، لعبت دورها في بناء حضارة عالمية

تناولت مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والمعمارية، وجوانب المهارات والحرف اليدوية والفنية، فلقد عُرف الإنسان في شبه الجزيرة العربية بمهارته التصنيعية، حيث نشطت على سواحلها موانئ ذخرت بمختلف أنواع السفن المحملة بنفائس الشرق، ولما كانت دبي ضمن أهم تلك الموانئ؛ فقد نشأت في كنفها صناعات حرفية، منها تصنيع الحلي والجواهر الذهبية والفضية، التي تخصص في إنتاجها الصاغة، والحلي بمفهومه العام كل ما يتزين به النساء والرجال والأدوات الشخصية التي تصنع لتُلحق بملابسهم وأدواتهم، فأدوات الزينة للمرأة هي العقود والأساور والخواتم، وتخصصَ بعض الصاغة في إمارة دبي لصنع السيوف والخناجر التي يتمنطق بها الرجال[2]، وغيرها من الأدوات الشخصية كالخواتم والمراود والتلاحيق الفضية التي تُعلّق في أحزمة الخناجر مع الحافظات الفضية، كما تخصص الصاغة في صناعة المداخن والمرشات الذهبية والفضية، التي كانت تزخرف بنقوش جميلة. وتخصص البعض من الصاغة في صناعة الأواني الفضية المزخرفة بزخارف ناعمة، والتي أطلق عليها النقش النعبي، الذي يتصف بنعومته ودقة تنفيذه. وقد حقق الصاغة الاكتفاء المادي من خلال تلك الحرفة التي انتقلت عبر الأجيال، لتشهد إنجازات عظيمة في مجال الحرف اليدوية، فكان الصاغة في المجتمعات البدوية يصنعون الخواتم والجبابر لأفراد المجتمع لمقايضتهم بالمواد الغذائية، التي كانت من أساسيات الحياة الصحراوية الصعبة لقلة الموارد الغذائية فيها، كما توجه الصاغة في الورش التقليدية لخلق تجمعات حرفية وتعاونيات أسرية لإنتاج المصاغ مما سهّل انتقال الحرف بين الآباء والأبناء دون انقطاع.

خواتم وجبابر من حلي شبه الجزيرة العربية تزين بها المرأة أصابعها الخمسة، ولكل إصبع خاتم خاص يميزه شكله وتسميته

- ومثّلت الحرف اليدوية المختلفة مصدراً أساسياً للدخل القومي ودخل الفرد، حيث تعتبر الحرف اليدوية ذراعاً اقتصادية قوية إذا تم توظيفها وتطويرها بما يناسب متطلبات المجتمع من منتجات واحتياجات، ونشأت الحرف لتلبية الحاجات الأساسية لمتطلبات الحياة كالمأكل والملبس والنقل والبناء، كما ارتبطت بعض الحرف بالكماليات، ومن الحرف العريقة التي عرفتها المجتمعات والحضارات حرفة صياغة الحلي والمعادن، ويرجع تاريخ بعض التقنيات اليدوية إلى 3000 سنة قبل الميلاد مما يؤكد أن الإنسان اكتشف المعادن الثمينة منذ عصور قديمة في صناعة الحلي وتزيين كل ما يحيط به بالذهب والفضة.
- فاقتبس من حركة الزواحف زخارف ملتوية ومتعرجة، وأخرى تشبه تفاصيلها حدة وبروز أنيابها وأسنانها، فحفر صوراً متحركة تنبض بالحياة، تتمثل في حركة زحف الأفاعي، وأخرى تمثل مراحل نمو القمر، واستخدم عنصر الصمت في حفر الأشكال التجريدية والأشكال الهندسية؛ في فلسفة خاصة ناتجة عن تفاعله مع عناصر البيئة المحيطة به، وأخرى كانت نتاج المعتقدات التي يؤمن بها، كما أثرت الظروف السياسية والاقتصادية والدينية في فلسفة صناعة الحلي، وتجلت التأثيرات السياسية والاقتصادية من تلك العملات الذهبية والفضية التي تتدلى من العقود والقلادات لتكشف العديد من الحقائق التاريخية

والسياسية التي تعاقبت من الحضارات المختلفة. فعمد الصائغ بقلم الحفر وأدواته للوصول إلى فن تشكيلي صامت ومتحرك، يتوسع مع توسع الفكر والمخيلة، وينمو ويتطور بتطور الحضارات والأمم، ويستقر في أحضان السلام ويفزع ويهاجر لتفادي الصراعات البشرية.

- وتوجّب عليّ ككاتب؛ دراسة جوانب مهمة من جوانب حرفة صياغة الذهب، كالجانب الاقتصادي والتقني والفني، وندرة المراجع في هذه الجوانب طمست العديد من الحقائق العلمية والمعرفية وفنون الزخرفة اليدوية لحرفة صياغة المعادن الثمينة.
- وغالباً كانت تطلق بعض المسميات على الحلي الشعبية باجتهاد شخصي، وقد يُحدد مسمى الحلية وظيفتها والغرض من لبسها، فعلى سبيل المثال يطلق لفظ بو شوك على الأساور التي تحيط بها أشكال مدببة مخروطية تشبه أشواك النباتات الصحراوية التي تنتشر في بيئة الصائغ الخليجي، ويحلل البعض وجود تلك الأشواك في الحلية لغرض دفاعي تحمي به المرأة نفسها في حالة وجود خطر يحيط بها في البيئة الصحراوية أو السهول والمناطق الجبلية، فلكل تسمية لتلك الحلي قصة سنكتشفها في دراستنا المفصلة، إلى جانب الطرح التقني والفني والاقتصادي الذي سيميز البحث بالشمولية ودراسة كل ما يحيط بتفاصيل حرفة صياغة الذهب، الذي تجاهله الباحثون عبر التاريخ، حرصت في مهمتي البحثية على تتبع تطور رحلة منتجات الصاغة، وتوضيح بعض المعتقدات السائدة بمحدودية عمل الصاغة في إنتاج الحلي النسائية التي تزين المرأة، وفي المقابل حجبت من أذهان الباحثين منتجات الصاغة من التحف الثمينة والأدوات التي ترتبط باحتياجات وأدوات الرجال كالسيوف والخناجر والبنادق، التي زينها الصائغ بالمعادن الثمينة، بالإضافة إلى أدواته الشخصية التي كانت تلازمه في حله وترحاله، كالمداوخ والمحافظ والملاقط، بالإضافة إلى المكاحل، والجدير بالذكر أن ازدهار حرفة الصياغة في العصرين العباسي والأموي جعلهما يزخران بمنتجات تعبر عن الفن التشكيلي في صناعة التحف التي كشفت عبقرية الصاغة في دمج مؤهلاتهم اليدوية مع مخيلاتهم الواسعة اللا محدودة.
- حرص الكاتب في كتاب «نكلس وكردانه» على الاستدلال بتقنيات الصياغة والفنون الزخرفية في الورش التقليدية في شبه الجزيرة العربية بمنتجات الصاغة التي تحلى بها أفراد المجتمع، وتحليل تفاصيل تلك الشواهد من الحلي، وربطها بتاريخ الحضارات البشرية المختلفة للوصول إلى حقائق متنوعة من خلال دراسة تفاصيل الحلي والوحدات الفنية التي تكونها.
- كما يُعتبر كتاب «نكلس وكردانه» قاموساً للعديد من المفردات التراثية المرتبطة بحرفة صياغة الذهب، والتي تُكشف معانيها لأول مرة من خلال هذا الطرح التراثي والتقني والفني، حيث تتبعت مصادر تلك المفردات المبهمة من خلال القصائد الشعرية، التي كانت تتضمن بعض مسميات الحلي، كما كشفت بعض القصائد النبطية مسميات أدوات الصاغة، بالإضافة إلى أنها كشفت بعض تقنيات الصياغة، وأثبتت هويتها وتاريخها لشبه الجزيرة العربية.

النجوم والأهَلة من أهم الوحدات الفنية للمصاغ الخليجي في تقليد عناصر البيئة.

- نشأة الحلي

لعبت الحلي دوراً كبيراً في حياة الشعوب القديمة، وتعددت وظائفها، ولم تقتصر على الزينة، فقد تعلم الإنسان منذ العصور القديمة التحلي والتزين من خلال تفاعله مع البيئة والطبيعة المحيطة به، فعمد إلى محاكاة الحيوانات والنباتات في اقتباس ألوانها الزاهية وأشكالها المتميزة في التحلي والتزين، وجعل من بعض الحيوانات رمزاً للقوة والسيطرة على محيطه البيئي. فصنع من أسنانها وأنيابها وعظامها حلياً وزينة، دلالة على هيمنته على الحيوانات القوية، كما وظّف الأخشاب الثمينة التي تنبعث منها رائحة عطرة في صناعات بعض المقتنيات الخاصة للرجال كالمدواخ، التي صنعها من خشب الصندل العطري الرائحة، والتي زيّنها بالذهب والعاج، وتتدلى منها السلاسل الذهبية لإضافة لمسات فنية جميلة، كما زيّن الصاغة في شبه الجزيرة العربية قرون الظباء والغزلان بالذهب، لتستخدمها النساء في تفريق شعورهن من الأعلى لصنع الضفائر التي تتدلى منها صنوف المشغولات الذهبية والفضية.

مفرق شعر أو مفرك - قرن غزال صغير ملبس بحلقات من الذهب. (1)

وتنوعت أساليب وطرق تزيين شعر المرأة بالحلي الذهبية والفضية، فمنها ما يغطي رأسها من الأعلى كالوشاح، ومنها ما يعلق في نهاية الضفائر (كالمشموم)، ومن الحلي ما يتصدر الجبهة، ومنها ما يمثل المشابك التي تعمل على جمع الشعر في جنبات الرأس، وأبدع بعض الصاغة بصنع خرزات ذهبية وفضية تتدلى في نهاية الضفيرة أو العقصة، والتي كانت تضع فيها بعض النساء مادة (الزباد العطرية) لتفوح الرائحة العطرية بين خصلات تلك الضفائر التي تتدلى منها الخرزات الكبيرة، والتي تناسب كثافة شعرها. ويطلق على تلك الحلية الخرزية (الزباد)، كما يسميها البعض في المناطق الشرقية في دولة

الإمارات «البيذامة» نسبة إلى شبهها بثمرة البيذامة أو اللوز. وتخصص لصناعتها الصائغ عبد الرحمن ، وللزباد أحجام مختلفة تحدد حسب كثافة الشعر، وحسب السيولة المالية التي تمتلكها النساء القبليات لتزيين ضفائرهن

راسي وراس امايه يقطر حل وزباد

طارت عني الوقاية جنها يناح غراب

البيذانة والبيذامة أو الزباد (1) - مجموعة مريم هلال الزعابي – الإمارات – كلباء.

وتطورت الحياة البشرية بتطور المجتمعات والتحولات الفكرية للإنسان، فانتقل الإنسان من الحياة البدائية والقبلية إلى مجتمعات مدنية أنشأت الدول، تبع ذلك التطور مرحلة فكرية أدت إلى تغير المعتقدات في وظائف الحلي، فأضيف للحلي قيم جديدة تمثلت في القيم الدينية والاجتماعية، كما أن تقدم المجتمعات والدول أضاف للحلي دلالة للمنزلة الاجتماعية للفرد، ولأن المعادن التي يصنع منها الحلي نادرة، فلقد أصبحت ذات قيمة عالية، وصارت ترمز للثروة، فتخصص بعض الحلي للملوك والأميرات دلالة على المكانة الاجتماعية، وقد أصبح التحلي يرمز للثروة والامتلاك، فكانت المرأة تلبس الحلي دلالة على منصب زوجها أو والدها كالملكة أو الأميرة، وكانت الأطواق الفضية تُلبس للدلالة على امتلاك عدد معين من قطعان الماشية، كما مثّل عدد الخرز في القلادات عدد الثيران في البيت الواحد.

قبقب – كبكب، طاسة من الذهب توضع على قمة الرأس تتزين بها العروس في دول الخليج، يكشف ثراء المجتمع الخليجي وبراعة الصاغة في إنتاج الحلي الشعبية، كما يكشف القبقب فلسفة التكرار في صياغة الحلي الخليجية.

أدى اكتشاف المعادن الثمينة، بالإضافة إلى الأحجار الكريمة، إلى نقلة شملت أشكال الحلي وتطور نماذجها ووظائفها، فلم تقتصر الحلي على فئات معينة من المجتمع دون أخرى، وكان الاختلاف بينهم في قيمة المعادن والمواد المصنوعة منها، ولأن لها خواص جمالية اختارها الصاغة مادة أساسية لصناعة منتجاتهم، ولكي يُظهر الإنسان جمالها وزعها على أعضاء جسده، فتخصص منها ما هو حلي للرأس والأذن والعنق أو الصدر أو اليد أو القدم، ومنها ما زينت بها الأدوات الشخصية (العصي – الخناجر – البنادق – المداوخ)، ومنها ما زينت الأدوات النفعية (المداخن – الأواني – التحف – التماثيل).

وعرفت مصادر المعادن الثمينة منذ العصور القديمة، واجتهد الإنسان بشتى الطرق للاستحواذ عليها، فامتلأت مخازن الحُكام والملوك بأرقام قياسية من المعادن النفيسة في فترة ازدهارها، واستهدف الملوك السيطرة على ما تصل إليه أيديهم من معادن نفيسة، مصنعاً أكان أم مشغولاً، سبيكة أم خاماً أم مادة أم مناجم لها، كون ملكية المعادن النفيسة تدعم الاقتصاد وتوفر القدرة الشرائية لكل الاحتياجات، وتساهم منتجاتها على دعم الإنتاج الحضاري.

والجدير بالذكر أن صناعة الحلي الفضية كانت حكراً على الملوك والأثرياء، ومن المحتمل أن نتصور أن أفراد الأسرة الحاكمة والأثرياء كانوا يصحبون صُناعهم المهرة معهم أينما ذهبوا، إلا أن صناعة الفضة كانت تنحصر في الأقليات العرقية، فقد أقام كثير من يهود اليمن لتجارة الفضة في فلسطين وفي الأردن لتقليد ومحاكاة بعض النماذج والتصميمات الجديدة، كما أن أمهر صناع الفضة في العراق وعلى الأخص في الموصل كانوا من اليهود.

وقد يقودنا هذا الاعتقاد بأن اليهود هم الذين أنشأوا الصناعات الفضية في عُمان، ومن المؤكد أن بعض الخواتم المستعملة في صور، سواء أكانت من الفضة أم الذهب ويتألف من شريط مزخرف يبدو للناظر شبه قفص مقبب، هو نوع لا يختلف عن خواتم الخطوبة عند اليهود.

وهكذا يبدو أن الأساليب الجديدة لهذه الصناعات سرعان ما كانت تنتقل من مكان إلى آخر، غير أنه يستحيل على أي إنسان أن يحدد بالدقة أياً من تلك التصميمات قد بدأ قبل الآخر، أو في أي مكان بدأ، خاصة أن الصناع المهرة كانوا ينتقلون في حرية تامة من بلد إلى آخر، بحثاً عن الثروة، وساهمت الزخارف القديمة أيضاً في التعرف على الفترة التي أنتجت فيها بعض الحلي القديمة.

والجدير بالذكر أن التصميمات الحديثة والحلي المطعمة بالأحجار الكريمة، هي أكثر النماذج انتشاراً في عُمان، قد تنتمي إلى صنعاء في اليمن الشمالية، ومن المحتمل أنها انتقلت إلى عُمان عن طريق الصاغة اليهود في اليمن.

وإن هذه التصميمات والأنواع تتركز وبكثرة في مدينة نزوى بالذات، وفي صور وفي عبري إلى حد ما، غير أن مدينة نزوى العمانية تعتبر من أهم المراكز لهذه الحلي ذات الأشكال الهندسية أو التصميمات الابلكية أو التي تشبه الماسة في شكلها. وعليه، إن الكثير من الحلي العمانية تشبه مثيلاتها في اليمن. ولا تزين الحلي العمانية بأحجار كريمة كثيرة، وإن كان المرجان الطبيعي أو الصناعي يدخل في بعض الأحيان في صناعة الحلي العمانية عن طريق رصه بين الخرز الذهبي أو الفضي، كما هو مألوف بين أهل البادية في فلسطين والأردن.[3]

وتتنوع حلي العروس القبلية في المحافظات اليمنية، فمنها التي تزين بالأجراس الكثيفة التي تعمل على إصدار الأصوات الناعمة التي تضفي الجمال الأنثوي عند النساء أثناء المشي، وقد تخصص الخلخال ذي الأجراس في تزيين قدمي العروس اليمنية، كما تتزين به النساء بعد فترة الولادة، وقد سمي بالخلخال «الحضرمي»، نسبة إلى محافظة «حضرموت» في المناطق الساحلية، واعتمد في صناعته معدن الفضة ومعدن النحاس المطلي بالفضة والفضة المطلية بالذهب

1. تقليد الطبيعة ومحاكاتها:

سبقت الحلي الملابس إلى الوجود، فالإنسان البدائي الأول في العصور الحجرية، ومنذ أن كان يتخذ من الكهوف مسكناً له، تعلم من الطبيعة التحلي والتزين، فقد جذب نظره بعض الحيوانات والنباتات المختلفة عن غيرها وعن جنسها بألوانها البراقة وأشكالها المتميزة، ودفعه ذلك إلى محاكاتها وقد جعلها
رمزاً للقوة والغلبة على الطبيعة التي حوله، فكان يتحلى بأسنان الذئب، أو أنياب الفيلة للدلالة على سيطرته على الحيوانات القوية في محيطه.

عقد يمني يحاكي عناصر الطبيعة، يطلق عليه اسم (الحنشي) نسبة إلى شكله الذي يمثل جسد الحنش (الثعبان).[4]

عبارة عن نسيج من الأسلاك يتم سحبها وجمعها ولحامها، ومن ثم يقوم الصائغ بحياكتها بطريقة يدوية لصنع وحدة زخرفية من الأسلاك المتشابكة في منظومة جميلة دقيقة ويطلق عليها السفافة، وهي أحد أنواع الصياغة التيلية التي يستند قوامها على زخرفة الأسلاك. وتصنع الأحزمة النسائية من تلك التقنية بعد أن يتم ملء تجاويف الأسلاك بالطين، ثم يتم طرقها للحصول على سطح مستوٍ ومن ثم يتم غسلها للتخلص من الطين العالق بين تجاويف الأسلاك، الصائغة شيخة عبد الرحمن – دبي – الراشدية، 2007م.

مرية حب الشعير تتمثل بخرزات متراصة تشبه في تكوينها حبات الشعير وهي تقليد لبذور الشعير.

2. ارتباط الحلي بالمعتقدات والعادات والحاجات:

أدرك الإنسان منذ وقت مبكر من التاريخ الجمال الحقيقي لمعدني الذهب والفضة، فاتخذ منهما أدوات للزينة، وربما يكون الإنسان قد شعر في فترة ما من حقب التاريخ بالحاجة إلى توكيد معتقداته وحماية نفسه من الأضرار التي قد تصيبه ولا

يدري لها سبباً، فاتخذ من الطلاسم والتعاويذ والحروز أدوات لهذه المعتقدات. وكان الاعتقاد السائد بوجه خاص ومنذ زمن بعيد أن للفضة خاصية ما، فهي تحمي الإنسان من العين الحاسدة الشريرة، ومن المحتمل أن تكون بعض الحلي العراقية القديمة، كالسلاسل والعقود التي تحمل بعض صور الحيوانات ويعود تاريخها إلى خمسة آلاف عام قبل الميلاد، قد استعملها الناس كتعاويذ تقيهم الشرور.

وبتطور المجتمع البدائي وتحول الإنسان نشأت مرحلة فكرية جديدة، أصبحت له معتقداته وعاداته، وتعددت حاجاته، وأعطى استخدام الحلي مفهوماً جديداً، وأصبح للحلي وظائف أخرى غير تقليد الطبيعة ومحاكاتها، منها معانٍ سحرية ودلالات أسطورية ورمزية وعلامات خصوبة، كما أصبح لها أشكال مختلفة، وكلها لم تخرج عن الأشكال الموجودة في البيئة من جماد وحيوان، ومنها ما اختص به الكهنة أو المحاربون والصيادون والقادة والفرسان والملوك، وأضيفت إليها قيم دينية وسحرية واجتماعية، فقد أصبح يدل على الثروة والامتلاك، فكانت الأطواق الفضية تلبس للدلالة على امتلاك عدد معين من قطعان الماشية مثلاً، أو قلادة الخرز للدلالة على عدد الثيران في البيت الواحد.

وما زال بعض سكان سلطنة عُمان مستمرين في استعمال أغطية القناني وقطع الخشب والنوى والعظام والأحجار التي تتدلى منها السلاسل وتزين بالفضة أو الذهب، بالرغم من أن الغرض الأساسي من استعمالها هو حماية الإنسان من الأمراض والشرور إلا أنها تحاط باللمسات الجمالية والفنية. كذلك أفكاك الثعالب التي يتدلى منها أربعة أسنان وهي مثبتة على قطع من الفضة تلبس على شكل سلاسل، ويمكننا الجزم بأن هذه الأدوات تتخذ كطلاسم وتعاويذ.

وقد تكون بعض التعاويذ حديثة، أو أنها كانت تصنع محلياً، وقد تم اكتشاف بعض من هذه التعاويذ في مقابر الانجلوساكسون خلال القرن السابع بعد الميلاد، ومن المحتمل أن كون بعض العقود هي التي يستعملها الأطفال في سن الرابعة أو الخامسة أو حتى يحين وقت التحاقهم بالمدارس، وبالرغم من أن الإسلام يحرم ارتداء التماثيل بوجه عام إلا أن عصر ما قبل الإسلام يحتفظ بأنواع من هذه التماثيل الفضية، التي كانت مثبتة خلف بعض الصور البارزة وهي ترمز إلى الجن أو متدلية بالسلاسل.

وعلى أي حال فإن الغاية من هذه التعاويذ هي طرد الشرور عن الإنسان ويقال إن هذا النوع من الحلي كان يصنع للنساء يستخدمنه خلال فترة الحمل، لتسهيل عملية الولادة. كما استخدم الزئبق في قنينات مطعمة بالفضة للحماية من الكائنات الشريرة، كذلك يعتقد أن بعض الخرز ذي الألوان والأشكال المعينة له خواص ضد بعض الأوبئة والأمراض، وتساعد النساء عل الولادة وإدرار لبن الإرضاع.[5]

كما كان لصناعة ولبس الخواتم قصص كشفت كثيراً من المعتقدات الدينية والاجتماعية في العالم الإسلامي والحضارات القديمة، والخواتم أكثر الحلي شيوعاً، التي حملها أهالي الحضارات القديمة للختم والزينة، وهي مصنوعة من الذهب والفضة، وكانت عادة وهب الخاتم للأعوان دليل تفويض بالسلطة، هكذا فعل فرعون حينما أعطى خاتمه إلى سيدنا يوسف عليه السلام، وخاتم النبي صلى الله عليه وسلم الذي توارثه من بعده الخلفاء الراشدون، والمعز الفاطمي عندما وضع خاتمه في يمين ابن زيري، فالخاتم ليس للزينة فقط وإنما رمز للسلطان وأداة للختم مما يعطي لحامله والوثائق المختومة به صيغة الرسمية والشرعية.[6]

خاتم من الفضة النقية زيّن بحجر من العقيق اليماني حفر عليه اسم الرحمن. وهي من المعتقدات الإسلامية لتعظيم أسماء الله وجلب بركتها في قضاء الحاجات، كما يستخدمها البعض كأختام.

قلادة تميمية بحرز في الوسط مع روبيات هندية ملضومة بين خرزات الدك في حبل من الخيوط.

علب فضية مطعّمة بفولك من الذهب[7]، تحفظ فيها الحروز والطلاسم ويوضع بها أيضاً المصاحف الصغيرة لغرض الحماية وجلب الحظوظ ورد الحسد والطاقات السلبية، تتدلى منها أجراس وأهلة وسلاسل لغرض جمالي.

3. لبس الحلي للتزين والتجمل:

يقول الشاعر جويهر الصايغ:

راعي الصّوغ الهبادي لي يزهو بالختم

عطْرَه دَهِـــــــنْ بغدادي جـا من بر العجم[8]

عرف العرب الزينة وعرفوا الحلي المصنوعة من المعادن، والحلي هي كل ما يتزين به من مصوغات من أعمال الصاغة بتنوع وظائفها، وقد عرفت المرأة العربية في شبه الجزيرة العربية التزين بالحلي منذ الجاهلية، وهي الحلي السائدة في جميع حضارات شبه الجزيرة العربية القديمة الجنوبية، سبأ ومعين وحمير، والشمالية كالمناذرة والغساسنة ومدائن صالح وعُمان والبحرين، وهذه الحلي هي التي كانت سائدة والمتأثرة بأساليب فنون العالم القديم والمعرفة.[9]

وعرب الجاهلية شأنهم شأن حضارات العالم القديم – أقاموا وزناً كبيراً للحلي فأولوها عناية كبيرة، وتفنن الصاغة بها وعرفتها المرأة العربية، وكانت لها تقاليد وعادات، وكان يقال للمرأة التي لا حلي عليها: (امرأة عاطل)، والمرأة التي عليها حلي يقال إنها (امرأة حال).

وتطورت المصوغات حسب التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في دول شبه الجزيرة العربية، وكان ذلك ظاهراً في أشكال الحلي وأنواعها ومسمياتها الحديثة التي تأثرت بتلك العوامل، ولأن هذه المعادن نادرة أصبحت ذات قيمة عالية، وصارت ترمز للثروة. ولأن لها خواص جمالية لا توجد في غيرها أصبحت مادة لصناعة الحلي، وأبدع الصاغة في إبراز جمالها وتنوع في إخراجها، فلم يجد صعوبة في مواكبة التطور، فصنع منها ما هو للرأس أو الأذن أو العنق أو الصدر أو اليد أو القدم والخصر، كما زيّن بها الأسلحة من بنادق وسيوف وخناجر ليضفي لها قيمة جمالية.

يُطلق اسم الحلي على كل ما يتزين به الإنسان من مصوغات ينتجها الصاغة الحرفيون، ولا تقتصر الحلي على زينة المرأة فقط، فللرجل نصيب في اقتناء الحلي أو التزين بها، فهي وسيلة لانعكاس الترف في المجتمع، وتنوعت منتجات الصاغة التي تخصصت لتزين مقتنيات الرجل في حله وترحاله، واعتمد في صناعتها معدن الفضة، ونذكر على سبيل المثال أنواع البنادق التي تُزيّن بصفائح الفضة المزخرفة بالنقوش الجميلة والمتنوعة، ومحافظ البارود المنثور في جنباتها الزخارف النباتية، وتتحلى بنقوش ومشغولات فضية تُعلّق على أطرافها. ومن الأدوات الفضية المستخدمة أيضاً علب لحفظ النقود تفنن

الصاغة في صياغتها، وخلالات الأسنان، وأدوات وإبر التطريز، ونتافات الشوك المحلاة بالنقوش، كما كان معظم الرجال في شبه الجزيرة العربية يتمنطقون بأحزمة تتدلى منها بعض الأدوات المصنوعة من الفضة كالملاقط والنتافات المستخدمة في انتزاع الأشواك، كما تصنع هذه الأدوات أيضاً من الحديد وتحفظ داخل أكياس من الجلد، إلا أن الطبقات التي تملك السيولة المالية تستبدلها بالفضة. ولما كان استعمال الكحل من الموروث العربي للرجل فقد تفنن الصاغة أيضاً في صنع المكاحل من الفضة وزخرفتها وتزيينها بالسلاسل التي تعلّق في محزمه.[10]

ومن المنتجات الشعبية التي تفنن الصاغة في إخراجها وتزيينها المدواخ الذي يوضع فيه التبغ، حيث تخصص بعض الصاغة بتطعيمه بالمعادن الثمينة والذهب والفضة والعاج المستورد الثمين.[11]

خنجر إماراتي عريق فريد في إخراجه يكشف الفنون الزخرفية الإسلامية العريقة لفن الزخرفة اليدوية وفن التوشيح بالمينا، كما يكشف تقنيات الصياغة العالمية التي انتقلت من الحضارات القديمة، صاغه الصائغ الإماراتي حمدان عبد الرحمن في الثمانينيات من القرن العشرين – لصاحبه السيد محمد أحمد بن محمود البلوشي - أبوظبي.

كما تخصصت أسر من الحرفيين في صياغة وزخرفة أغمدة السيوف والخناجر، التي نالت نصيباً كبيراً من أعمالهم ومنتجاتهم الثمينة، كونها من المستلزمات الأساسية لحياة القبلي الذي يحمل الأسلحة في حله وترحاله ويتمنطق بها أثناء نومه دون أن تفارق بدنه، فهي الوسيلة الوحيدة التي كان يدافع بها عن نفسه وماله وما يملك من خيرات، وكانت هي الأدوات التي تمنحه الهيبة والمكانة وصفات الشجاعة والرجولة، لذلك نالت تلك الأسلحة اهتماماً في تزيينها بأثمن المعادن كالذهب والفضة، وتصدرت منتجات الصاغة الذين نقشوا أجمل الزخارف اليدوية على أغمدة تلك الأسلحة الفردية، كما استخدم الرجل أحزمة تلك الأسلحة التي تلازمه لإضافة التلاحيق (القرقعان)، التي تمثلت في أدواته الشخصية، والتي صنعها من الفضة كالمحافظ الفضية المزخرفة بصنوف الزخارف النباتية، وأدوات حفظ البارود والرصاص، المنقاش والملاقط والمكاحل التي تتدلى من سلاسل الفضة، وكانت تلك الأسلحة من السيوف والخناجر والبنادق المطعمة بالعاج والذهب والفضة وسيلة لسد حاجة صاحبها المادية، وتسد مديونياته المالية، حيث كانت ترهن مقابل مبالغ مالية أو سد ضائقة اجتماعية، لذلك كانت السيوف والخناجر والبنادق تنال أهمية كبيرة في جميع الحضارات الإنسانية وتزيينها بأثمن المعادن. وتوضح بعض الوثائق البريطانية في عهد زايد الأول، التي تمثلت في رسائل مرسلة للشيخ أحمد بن محمد بن هلال سنة 1302هـ، يوصف فيها السيوف بأن صدرها من الذهب، كما يذكر بعض الخناجر التي ورّثها البعض لأفراد أسرته.[12]

وقال الشاعر جويهر الصايغ:

الكوس المطلعيّه لي تتلي الأسياف

جت بأرياح عتية ماجابها الجزّاف[13]

ورغم الالتزام بالتقشف طوال العصر الإسلامي الأول في أيام الخلفاء الراشدين، فإن العصر الأموي الذي تلاه ظهرت فيه بوادر الترف، حيث يذكر أن الوليد بن يزيد الذي أُغرم بلبس العقود، كان يغيّرها في اليوم الواحد كما يغيّر الثوب، أما العصر العباسي فقد زادت فيه العناية بالحلي، وأصبحت مظهراً من مظاهر الترف والثروة، ودونت في الكتب أوصاف وأثمان وأعداد الحلي التي تمتلكها زوجات الخلفاء وجواريهم.

وكان للخيول والجِمال نصيب أيضاً من أعمال الصاغة، فزيّن كل ما يحيط بها بالحلي الثمينة كالسروج الذهبية واللجام وغطوا أعينها ببراقع من الذهب، وامتد عمل الصاغة لتزيين الخيول، فصنعوا للخيول الأصيلة الحذوة الذهبية التي تكشف ثراء صاحبها[14]، فالتطور والازدهار الاقتصادي للحضارات والأمم وفّر للصاغة فرصة في تنويع منتجاتهم التي قاومت جميع العوامل، لتبقى شواهد ومقتنيات معروضة في جميع متاحف العالم، تكشف محاور عقائدية وتاريخية وأيضاً اقتصادية عدة، فالحلي القديمة أدوات بحثية لمن يحسن استخدامها في مجمل العلوم الإنسانية.

نلاحظ منذ نشأت حرفة صياغة الحلي أن الفنون الزخرفية والصياغة جميعاً تتبادل التأثير في أغلب تفاصيلها، كما تتوارث وتتبادل الأساليب التقنية والفنية المختلفة، وقد أثبت علماء الفنون والآثار أن جميع العناصر الزخرفية في أغلب الفنون مشتقة من عناصر زخرفية لفن أعرق منه منذ القدم، وأن سلسلة تبادل الفنون ترتبط بأقدم مراحل الفن التي عرفتها الحضارة المصرية وبلاد شبه الجزيرة العربية والصين والهند وبلاد الإغريق، ولا يزال الأخصائيون في علم ما قبل التاريخ يثابرون على البحث وعمل الحفائر الأثرية لمعرفة الخطوات التي خطاها الإنسان منذ عصوره الأولى حتى نشأت الطرز الفنية الرئيسية في مصر وبلاد الجزيرة والصين وبلاد اليونان، وكثير من الباحثين لا يصنفون الفن الإغريقي فناً رئيسياً، ويرجحون أنه نقل العديد من عناصره الفنية من مصر وبلاد الجزيرة، ولم تصل هذه الفنون إليهم مباشرة من مصادرها الرئيسية، بل أخذها من بعض مراكز المدنية الأولى في البحر المتوسط مثل فينيقية وكريت وميسيني.

ومن الجدير بالذكر أن الفن في الصين فن عريق منذ القدم، احتفظ بكثير من أساليبه الفنية على مر العصور، وازدهر في محيط اجتماعي واسع، وكانت له وحدة فنية منذ الألف الثالث قبل الميلاد قبل المسيح إلى العصر الحالي، وقد عرف المسلمون هذا الفن منذ فجر الإسلام وأعجبوا وتأثروا بمنتجاته كثيراً.

ولونا حقب قاسني وعلى المضمر لقيت[15]

وكان العرب يدركون أهمية الحضارات القديمة التي كانت مصدر الفنون، ولمّا وحّد الإسلام كلمتهم وعظّم من شأنهم امتدت فتوحاتهم، وأخضعوا الإيرانيين، وخضعت لهم مستعمرات بيزنطية في آسيا وأفريقيا، وأتيح لهم الاتصال بالحضارات القديمة، وتخلوا عن حياتهم البدوية، وشملوا برعايتهم الصنّاع والفنانين من أهل البلاد الخاضعة لحكمهم، فنشأ للمسلمين فن جميل على أنقاض الأساليب الفنية التي كانت سائدة في الأقاليم التي فتحها العرب، وجعلوها قواماً لدولتهم الواسعة الأطراف، وقد جمع الإسلام شتات هذه الأساليب الفنية المختلفة وطبعها بطابعه، ولكن أتيح لها بعد ذلك أن تتأثر بفنون الشرق الأقصى.[16]

والفن الصيني فن عريق، احتفظ بكثير من أساليبه الفنية على مر العصور، وازدهر في محيط اجتماعي واسع، وكانت له وحدة فنية منذ الألف الثالث قبل الميلاد، واستمر قروناً متتالية، وقد عرف المسلمون هذا الفن منذ فجر الإسلام وأعجبوا بمنتجاته فتأثروا به.

ساهم الموقع الاستراتيجي لمنطقة الخليج العربي، قلب حضارات العالم القديم، في أن تكون جسراً لأكثر الحضارات الوافدة من الشرق إلى الغرب وبالعكس. حيث نشأت من جراء ذلك علاقات حضارية وتجارية بينها وبين حضارات كل من وادي الرافدين، خاصة مدينة أور، التي كان يسكنها جالية من تجار دلمون لهم معابدهم الخاصة بهم، وعثر على الكثير من الأختام الدلمونية فيها وفي غيرها من مدن واديي الرافدين، فنتيجة لجوار منطقة الخليج لمراكز حضارية بارزة هي بلاد الرافدين

وفارس والهند، فإن مؤثرات هذه المناطق واضحة في المصوغات الخليجية التي كانت بمثابة حلقة وصل تاريخية لتجارة وثقافة هذه الأقاليم نتج عنها نشوء وتطور حضارة محلية.

ولقد ساعد ذلك دول الخليج العربي لقيام صناعة المجوهرات المزدهرة من أقدم العصور وعبر الحقب الحضارية المتلاحقة إلى أن بزغ فجر الإسلام، فأثرت العقيدة الإسلامية في أسلوب وخصائص إخراج وتصاميم وزخرفة المصاغ والمجوهرات والحلي.

فبدأ الهلال مضيئاً في النماذج الجديدة من الحلي باعتباره رمزاً لبداية كل شهر جديد من السنة الهجرية.

وكانت البضائع تأتي من دلمون عن طريق البحر بواسطة السفن أو عن طريق القوافل التجارية البرية. ومن أشهر البضائع التي جلبها الدلمونيون الذهب، الذي كان يأتي من الجزيرة العربية، وحتى الآن يوجد بها منجم مهد الذهب، كما كان الذهب يأتي من الهند وربما من مصر، حيث اشتهر الفراعنة بتعدين الذهب وصياغته، وحيث إن مدافن فترة دلمون التي تم التنقيب فيها إلى الآن قد تبين أنها قد نهبت في فترات زمنية مختلفة قد يعود بعضها إلى فترة دلمون نفسها.

إلا أنه تم العثور على القليل من المجوهرات الذهبية فيها، والتي تدل على صياغة فنية متقنة، ولها زخارف تتشابه مع التجارية والسياسية والملاحية والثروات المعدنية ومنها الذهب والفضة والنحاس.

أما الفضة، فكانوا يأتون بها من مدن حضارة وادي السند والهند وعمان، وكانوا يعيدون تصديرها على شكل أقراص دائرية مسطحة من جهة ومحدبة من الجهة الأخرى، ولها أوزان ثابتة. وعثر عليها في موقع قلعة البحرين بالقرب من الميناء الدلموني.

وأيضاً على رصيف ميناء بحري قديم بالقرب من موقع أم صليم على الساحل الغربي لجزيرة البحرين.

واقتحم الدلموني البحر غائصاً وتاجراً، فتاجر بنقل بضائعه إلى مختلف الموانئ التي كان يرتادها ونقل منها ما رآه صالحاً لمجتمعه وبيئته، وحتى بعد اضمحلال حضارة دلمون ومجيء الكاشيين، ثم تلاهم البابليون فالآشوريون ثم الدولة البابلية الحديثة.

إلا أن العلاقات التجارية استمرت في هذه الفترات بين صعود ونزول بحسب الأوضاع السياسية للبحرين في تلك الفترات مع زخارف المجوهرات البحرينية القديمة[17]

ولقد عُثر في معبد باربار على شريط من الذهب الخالص لربط ضفائر الشعر به وعلى أواني فرعونية من المرمر المصري وعلى رأس ثور من النحاس وهو عبارة عن مقدمة موسيقية تشبه القيثارة، ووجد ما يشابهها محفوراً على بعض الأختام الدلمونية.

ولقد ذكر السومريون في مدوناتهم أن حضارة برزت في الخليج هي حضارة دلمون خاصة في الأمور.

في الوقت الذي لا نملك أدلة عن تاريخ المعادن الثمينة ومناجمها في بعض الدول الخليجية، فإن هناك إشارات تاريخية عن الازدهار الحضاري متعدد الجوانب لفنون صياغة الذهب والفضة، وعبر تجارتها وأسواقها العامرة بمنتجات الصاغة التقليدية، واتبعت قصور الحكام والمشايخ والسلاطين والأثرياء عادات الترف وتقاليد التطور، ومنها ما حفلت به قصورهم من تحف فنية، وما كانت تتزين به نساؤهم من مصاغ من الذهب والفضة المطعمة بالأحجار الكريمة، ومن الحلي ما كانت تزين بها سروج الخيول واللجام، حيث نتج عن التنقيب في منطقة المليحة بالشارقة وجود أقراص ذهبية مزخرفة مدفونةً مع حصان زيّنه صاحبه بلجام مزين بأقراص ذهبية توضح مدى الثراء الذي تمتع به أهل المنطقة، زين في طقوس درج عليها بعض سكان مليحة في هذه الفترة الزمنية اعتقاداً منهم بحاجتهم إليها في الحياة التالية.

وربما كانت هذه الأقراص تترابط مع بعضها بحلقات برونزية يشدها حزام جلدي أبلاه الزمن، وربما توحي هذه التزيينات بتأثيرات خارجية جلبها أصحاب اللجام معهم من أسفارهم البعيدة، أو أن اللجام بأكمله قد استورد أثناء تلك الرحلات.

وشاعت بعض العادات في المجتمعات العربية لرهن الحلي، وهي عادة جارية وشائعة. يذكر أن والد هند – عتبة بن ربيعة – استعار حلياً من بني أبي الحقيق، مقابل رهن لمدة شهر، وذلك عند زواجها من سفيان بن حرب.

وما زالت تلك العادة شائعة في المجتمعات الخليجية، حيث نلاحظ تخصص بعض النسوة في إمارة دبي لإعارة الحلي الشعبية الكبيرة الحجم والثقيلة، والتي تخصص لتزيين العروس في ليلة الحناء، وهي الليلة ترتدي فيه العروس الثوب الأخضر تسبق ليلة الزفاف.

حيث تخصصت بعض النسوة من الأسرة الثرية في دولة الإمارات في إعارة المجوهرات والحلي الثمينة أو استعارتها مقابل أجور نقدية أو تخصصها وقفاً لنيل الأجر ومساعدة المتزوجين، ولضمان استرجاعها كاملة وبحالتها التي استعيرت بها كانت تفرض بعض النساء الثريات على العروس رهن جواز السفر أو أوراق رسمية تُلزم مستعير الحلي الحفاظ عليها وعلى سلامتها من التلف أو الفقدان، ومن النساء الأوائل اللاتي ساهمنا في نشر عادة تأجير وإعارة حلي العروس الذهبية الشعبية السيدة حبيبة من دبي وبعض النسوة من عائلة رجل الأعمال يوسف باقر اللاتي كن وجهة المقبلين على الزواج لطلب استعارة ما لديهن من الحلي الشعبية التي تتزين بها العروس، ويمثل لها فخراً بين أفراد المجتمع ويزيدها جمالاً وتألقاً.

ومن أشهر النساء من تلك الأسرة المغفور لها (المطاشة) أو مزينة العرائس شمسة باقر وأختها المغفور لها فاطمة باقر اللاتي تخصصن في تجهيز العروس وإعارتها الحلي الشعبية الثمينة طلباً للثواب ودعماً لأفراد المجتمع ومشاركتهم أفراحهم ومناسباتهم بما يمتلكون من إمكانيات تحتم عليهم نهج تلك العادة الطيبة. حيث فتح لشمسة باقر المجال أثناء زيارتها لمنازل العرائس لتزيينهن التعرف على الفتيات المقبلات على الزواج، لذلك شاركت في تزويجهن والعمل كخطابة تدعم الشباب والشابات في الزواج التقليدي المتعارف عليه في تلك الفترة من الزمن.

والجميل في هذا السياق أن تلك المجموعة التي خصصتها فاطمة باقر من الحلي الشعبية الثمينة زينت بها ما يقارب 2000 عروس من فتيات المجتمع الإماراتي خلال 90 عاماً من الوقف الخيري دون طلب ضمانات أو عقود من العروس أو أقاربها، ودون أن تتعرض تلك الحلي إلى التلف أو الفقد رغم شح الظروف الاقتصادية في تلك الفترة، ما يدل على قوة التآزر والترابط بين أفراد المجتمع وسيادة القيم والأخلاق لحفظ الأمانات. [18]

ويذكر الشاعر راشد الخضر كلمة الصوغ وصاغ وايصوغ في الأبيات التالية[19] :

وَنّيت يوم الشَّرْع نِزَّاغْ وَنةْ لِذي في الحبْس مَرْصوغْ
ياوَنَةْ المطعون ويراغ من عقب ماهو سبع يــروغ
على وليف لابس دلاغ يزهو ولو مايلبس الصــوغ
ماهو من دش الهوى صاغ ميشان كانه مثلي ايْصُوغ

تنافس النماذج الحديثة الحلي الشعبية التقليدية التي غزت محلات الذهب مع الوفرة الاقتصادية والمالية لدول الخليج ولكنها احتفظت بأشكال وحداتها الفنية الأساسية التي تتكون منها الحلية.

4. وسيلة للاستثمار والتجارة والاحتياط النقدي:

تعتبر المعادن النفيسة ذات أهمية بالغة جداً، حيث تستخدم كاحتياطات نقدية وصياغة الحلي وللأغراض الصناعية الطبية، كما تعتبر موارد الثروة المعدنية من أهم الركائز الأساسية لعملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة التي تسعى إلى تحقيقها الأقطار الإسلامية، وتحتل الثروات المعدنية موقعاً متميزاً في البناء الاقتصادي لأغلب بلدان العالم للأهمية التي تتمتع بها تلك الموارد في مختلف مجالات التنمية، خاصة بالنسبة للقطاع الصناعي، فاستخراج الخامات المعدنية وتصديرها إلى الخارج يمثل أهم المصادر الرئيسية لتمويل عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية في كثير من الأقطار الإسلامية، ومهما تكن عملية إنتاج وتصدير الخامات المعدنية مربحة وذات مردودات كبيرة وضرورية إلا أنها يجب ألا تكون هدفاً بحد ذاته، فالهدف الاستراتيجي من استثمار الثروات المعدنية هو ليس الحصول على مردودات مالية آنية مهما كانت المردودات المرحلية، وإنما الهدف الأساسي الاستثمار، لا بد وأن ينصب على تصنيع تلك الخامات المعدنية بصورة كاملة داخل الوطن العربي والإسلامي، فلكي تحقق الأمة العربية والإسلامية تقدماً حضارياً ورفاهية لشعوبها لا بد من التعاون في سبيل تنمية واستثمار ثرواتها المعدنية بمختلف مراحلها ومتطلباتها ابتداءً من:

- مرحلة الاستكشاف والبحث والتنقيب.
- مرحلة الاستخراج والتركيز والإنتاج.
- مرحلة التصنيع والتسويق.
- مرحلة تدريب الكوادر ونقل التكنولوجيا.
- البحث والتطوير.[20]

تتصدر المعادن قائمة المواد التي يُصنع منها المصاغ، وتكشف التطور الحضاري للأمم، حيث تعكس التقنيات الفنية العديدة وتنوع المنتجات والمقتنيات وتنوع الزخارف، وتكشف المعادن أيضاً المهارات اليدوية والمخيلة الفكرية التي عرفها الإنسان واجتهد في تطويرها، وخلق صوراً جمالية لتلك المعادن التي تدل على تطور علوم وفنون التعدين.

يُعتبر الذهب والفضة من المعادن الأساسية التي استخدمها الصاغة في إنتاج المصاغ الشعبي والحلي التقليدية المتنوعة، والتحف الثمينة المختلفة التي تعددت استخداماتها، والتي كانت تلبي رغبات واحتياجات أفراد المجتمع مع اختلاف مستوياتهم، وامتد عمل الصاغة في تزيين أدوات ومقتنيات وحلي تزين الخيول والجمال والأسلحة البيضاء كالبنادق والسيوف والخناجر التي رافقت الرجال في النظام القبلي لدول شبه الجزيرة العربية وشعوب العالم، استثمر الصاغة في معدن الذهب من خلال ما أنتجوه من حلي ثمينة، وتوجه التجار وأصحاب المحلات إلى ورشهم للمتاجرة في منتجاتهم، ونشأت مهن مصاحبة لحرفتهم تخصصت في بيع وشراء منتجاتهم، فأصبحت حرفة صياغة الذهب وسيلة للعديد من تجار الذهب وأفراد المجتمع

للاستثمار. جعلت التجارة من الحلي عملة ومقياساً للتبادل والتعامل التجاري في البيع والشراء، وذلك قبل استعمال العملات وسك النقود بوقت طويل، حيث استخدم الخرز والفصوص من الأحجار الكريمة والأصداف والمحار عملة للبيع والشراء، واستمرت هذه الطريقة سارية في القرن التاسع عشر حتى بعد ظهور العملات.[21]

إن ميزة الذهب هي حمايته الدائمة لقيمة رأس المال ومحافظته على قوته الشرائية، وهناك أرباح يجنيها من له خبرة في استثمار الذهب، والمستثمر الذكي لا يتخذ قرارات الاستثمار في الذهب لجني الربح السريع، ولكن يتأنى وينتهز الفرصة المناسبة لبيعه أو شرائه للمحافظة على قيمة رأس ماله والقوة الشرائية لثروته.

برز في عام 1979 بين الصاغة والمهتمين بالمعادن الثمينة تنافس كبير لجمع وشراء التحف والأسلحة المصاغة والأواني والحلي الفضية، مما دفعهم إلى زيارة القبائل البدوية وشراء الفضة بأثمان بسيطة من أصحابها المحتاجين للسيولة المالية، والذين كانوا يتحلون بالمصاغ القبلي، وتم تتبع أثر التحف الفضية في جميع محلات الذهب والفضة وملئت صناديق وأكياس كبيرة نتيجة شراء تلك القطع الفضية، وحصل البعض من الصاغة والتجار على كراسي وطاولات من معدن الفضة، صُنعت في الأقاليم الإسلامية المختلفة، التي تتميز ببراعة حرفة صياغة وزخرفة الفضة، وكان سبب تلك الظاهرة الارتفاع المفاجئ والسريع لمعدن الفضة، حيث بلغت نسبة ارتفاع سعر أوقية الفضة في يناير 1980 حوالي 1000% مقارنة بسعرها عام 1978م، وكان المضاربون يقولون (الفضة أفضل من الذهب).[22]

ولعل أبرز مثال على الارتفاع الهائل الذي سجله سعر الفضة من 1971 حتى شهر مايو 1974 ارتفاع سعر الريال النمساوي في سلطنة عُمان من نصف ريال عماني إلى 1.4 ريال.[23]

لقد مثّلت ظاهرة إذابة الحلي القديمة كارثة تاريخية أدت إلى اندثار تراث المصاغ الفضي القديم، الذي شكّل فنوناً زخرفية وقطعاً فنية فريدة من أعمال الصاغة لها خصوصيتها الجمالية، وكان من أسباب أحداث تلك الظاهرة أيضاً تطور الاستخدامات الصناعية للفضة على المستوى العالمي، مما أدى إلى ارتفاع سعرها، الأمر الذي دفع الناس إلى الرغبة في الحصول على أرباح طائلة ومكاسب مالية هائلة من اقتناء وبيع التحف والمصاغ الفضي، إذ يذكر الصاغة أن الكثير من الناس في دول الخليج وصلوا إلى مرحلة الغنى وجني الأموال، وتحولت أحوالهم المادية من الفقر إلى الغنى جراء تجارتهم بالفضيات، لوفرة التحف والمصاغ الفضي في الدول العربية والإسلامية التي تزخر بها.[24]

معدن الذهب GOLD: جذبت مزايا المعادن «الذهب – النحاس – الفضة» اهتمام وخيال الإنسان منذ عصور ما قبل التاريخ، أطلق عليه «ملك المعادن»، وهو أهم معدن في النظام الاقتصادي، بسبب القيمة العالية التي يمتلكها منذ العصور القديمة، فلقد قورن الذهب عند قدماء اليونان والمصريين بالشمس لنقاوته وصفائه، وهو معدن قديم يتميز بلونه الأصفر اللامع غير القابل للصدأ، له قابلية للطرق والسحب. مما ساهم في سهولة استخدامه بورش الصياغة لإنتاج مختلف الحلي والأدوات النفعية والتحف الثمينة، وتم دمجه مع الفضة والنحاس لصناعة السبائك، فيكتسب اللون الأصفر الباهت عند دمجه مع الفضة، بينما يصبح لونه أصفر مائلاً إلى الخضرة عند صهره مع معدن النحاس، إذ إن لون الذهب يكشف نسبة الفضة أو النحاس الم

ويقول الشاعر جويهر الصايغ:

الصـــــدر له دكَّاني[25] واثْنَـــق بما اشتهيت
اشقى سعيد وشقاني وين طربت وهويت

معدن الفضة:

يعتبر معدن الفضة من أوائل المعادن التي اكتشفت واستخدمت في مجالات مختلفة كحلي ونقود وفي مختلف الصناعات، وهو المعدن الثالث في سلم المعادن التي اكتشفت بعد الذهب والنحاس بالمصادفة، والفضة عند الصينيين رمز اللمعان والصفاء وأطلقوا عليه «المعدن العنيد» Obstinate metal كونه معدناً يصعب الحصول عليه. وقد تم اكتشاف الفضة في موقع «آن يانغ» An –Yang في مقاطعة «هونان» Honan واستعملت الفضة في الفترة بين 475- 221م. وأطلق عليه عصر «الممالك المتحاربة» warrng states period.

واكتشفت الفضة في منطقة الخليج العربي والشرق الأوسط منذ آلاف السنين في مناجم عدة «الجبل الأخضر في عُمان - ومناجم سمرة – ومهد الذهب في الحجاز – وفلسطين».

ويعتبر اليمن في شبه الجزيرة العربية من أقدم المراكز التجارية لمعدني الذهب والفضة نظراً لموقعه الاستراتيجي بين أفريقيا والهند. وتخصصت في اليمن قبل الإسلام أسواق لبيع وشراء الفضة.

شهد تاريخ المناطق العربية الواقعة حول البحر الأحمر فعاليات تعدينية متعددة، شملت المعادن النفيسة، وامتدت منذ منتصف القرن الثاني حتى منتصف السابع الهجري، ويعود اكتشاف أهم مواقع الذهب في مناطق الدرع العربي إلى الفترة التي تلت الفتح الإسلامي، حين تعرّف سكان الجزيرة على طريقة تتعلق بالتنقيب عن الذهب، تعتمد على خواصه الفيزيائية كالبريق والوزن النوعيين، ويبدو أن السبب الذي عجّل في اكتشاف تلك المواقع هو اتجاه القوافل في خطوط ذات معالم رئيسية تتبع في كثير من الأحيان الفوالق العميقة، والتي تحتوي على العديد من ترسبات المعادن النفيسة.[26]

وإن للكثير من مكامن الذهب والفضة في الدرع العربي تاريخاً تعدينياً قديماً يمتد إلى ما قبل الإسلام، إذ ذكر المؤرخون عن تلك العصور مواقع مناجم المعادن، ومنها النفيسة في شبه جزيرة العرب، خاصة في جنوبها، حيث كانت أرض سبأ من الأماكن الغنية بالذهب والفضة وفي حدود 20 ق.م. تواجد الذهب في المناطق القريبة من الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية، وإن السكان كانوا يبادلون الذهب بالفضة والنحاس من الأماكن المجاورة ولا سيما المناطق اليمنية.[27]

ومنذ العصور القديمة تعرّف اليمنيون على معدن الذهب واستخرجوه منذ زمن طويل من أراضيهم، واستخدم في الزينة وفي صناعة العملات المعدنية، وانعكس ذلك على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اليمن القديم، وأثرت العوامل الحضارية التي سادت المنطقة على عمليات التعدين، ورغم ذلك لم تكشف البحوث الجيولوجية التاريخية ولم تحدد مناطق المناجم إلا القليل منها، وهي مناجم قديمة في منطقة «النهم» و«اللوذة».

أثبتت الدراسات الجيولوجية في عُمان وجود المعادن النفيسة، خاصة البلاتين في صخور الافيولت، والتي توجد على عمق 60 كيلومتراً من سطح الأرض أو 20 كيلومتراً من عمق البحر، ونتيجة لأنشطة بركانية انسحبت هذه الطبقات إلى سطح الأرض مكونة جبالاً تزخر بالمعادن النفيسة، أما بخصوص الذهب، فقد أعلنت شركة عُمان للتعدين أنها ستبدأ من شهر يناير 1994م في إنتاج الذهب بمعدل 500 كيلو غرام سنوياً ترتفع إلى 750 كيلو غراماً مع نهاية عام 1995م.[28]

ساهمت العديد من العوامل في تنوع منتجات الصاغة في المجتمع الخليجي ومن أهم تلك العوامل:

- وفرة المعادن والأحجار الكريمة في بعض المناطق الخليجية.
- الوفرة المالية والقوة الشرائية بسبب ظهور النفط.
- التطور الفكري والمهارة والخبرة اليدوية للصاغة.
- العادات والتقاليد السائدة التي تعزز لبس الحلي.

- الظروف الاقتصادية والحركة التجارية التي تمثل الركائز الأساسية لتطور حرفة صياغة الذهب.
- العوامل السياسية واستقرار المجتمعات داعم لنمو وتطور صناعة الحلي الثمينة وتداولها.
- العوامل الجغرافية وعلاقات الجوار مع دول العالم ساهمت في تطور حرفة صياغة الذهب وانتقال المصوغات بين الدول المجاورة وتزاوج الفنون وتبادل التقنيات اليدوية.

ساهمت تلك العوامل في تكوين تاريخ حرفة صياغة الحلي وتنوع إخراجها، وسهولة اقتناء المرأة لمنتجات الصاغة التي تزين جسدها، وتنسج مع خيوط ملابسها، وتجدل مع ضفائرها، وتعظم مكانتها الاجتماعية، عندما تزيّن بها رأسها، أو تطوق بها رقبتها، أو تتدلى على صدرها، وتتخلل الأقراط المختلفة أذنيها أو تزيّن بها جبهتها.

ومع صوت أجراسها وحركة سلاسلها تزيدها بهجة وسروراً وقبولاً اجتماعياً، إنها فلسفة الزينة والجمال مع معدني الذهب والفضة وعشق بريق المعادن والأحجار الكريمة، التي تزيد المرأة جمالاً كلما لامست جسدها تلك المعادن الثمينة في مراحل عمرها، لتشمل مقتنياتها الشخصية المتنوعة.

وانصبت جميع تلك العوامل في بوتقة الصائغ ليزين بها المرأة بصنوف الحلي في مراحل عمرها بدءاً من المهد لتستمر رحلة الحلي مع المرأة وتشاركها أفراحها ومناسباتها، ويزيد الصائغ سخاءً في تزيينها في ليلة زفافها، حيث تتميز المجتمعات الخليجية وتبذل اهتماماً بالغاً في تجهيز حلي العروس التي تتزين بها، لتتنوع وتشمل العديد من النماذج الجميلة ذات الأحجام الكبيرة لتصاحبها في ليلة زفافها.

وكان في بغداد سوق كبير يعرف (بسوق الصاغة)، كما يوجد مثله في مختلف الحواضر الإسلامية كدمشق، وحلب، وإسطنبول، والقاهرة، ومدن شمال أفريقيا كالقيروان وفاس ومكناس، ومدن الأندلس كغرناطة وقرطبة وأشبيلية وغيرها، كلها على نمط واحد، حيث لها أبواب تُغلق ليلاً ويخفرها حراس، كما تذكر وجود أسواق خاصة للجواهر، فيها دكاكين داخلها أقفاص تحفظ بها الجواهر والأحجار الكريمة.

ويعتبر سوق الذهب في مدينة دبي من أشهر الأسواق على المستوى العالمي والعربي، فهو سوق زاخر بمختلف التصاميم والنماذج من الحلي النسائية، التي تبهر الناظر ببريقها الأصفر اللامع، الناتج عن انعكاس الكم الهائل من المصوغات الذهبية، التي تجبر الزائر على الوقوف أمامها والتمعن في الإبداع والحس الفني لصائغها، وأغلب تلك النماذج هي نماذج مستوحاة من المصوغات المحلية التقليدية القديمة والمصاغة يدوياً. والتي تبرز الجهد والمهارة الفنية العالية المبذولة في إنتاجها يدوياً تعتبر المصوغات الحديثة والمصنّعة بنماذج تقليدية، وإن كانت مصنعة بالآلات الحديثة، جزءاً أساسياً من زينة المرأة الإماراتية، تحتفظ بها وتستخدمها في الأفراح، تتزين بها العروس وأم العروس وكبار السن من النساء، والتي تضفي قيمة خاصة لمن يرتديها من النساء، تعبر عن الثراء والوجاهة والأصالة، تلك المصوغات التي حافظت على نماذجها التقليدية رغم تداخل الحضارات وظهور النماذج الحديثة الثمينة، التي لم تستطع منافسة القديم والأصيل من تلك الحلي.

الكاتبة في سطور:

الجنسية: دولة الإمارات العربية المتحدة – إمارة دبي.

- كاتبة وخبيرة وباحثة في حرفة صياغة الذهب في شبه الجزيرة العربية.
- مؤلفة كتاب «خنير وكتاره من الإمارات».
- مؤلفة كتاب «صياغة السيوف والخناجر في دولة الإمارات».
- مؤلفة كتاب عن المقتنيات التراثية لهيئة الشارقة للمتاحف.

- دبلوم في إدارة المؤسسات الثقافية.
- خبرة 27 عاماً في مجال التربية والتعليم.
- كُرّمت في عام 2022م كسفيرة فخرية للثقافة من مدينة أستانا في جمهورية كازاخستان.
- كُرّمت في عام 2023م كسفيرة فخرية للثقافة والتعليم والصحة والسياحة لمدينة Taraz في جمهورية كازاخستان.
- كُرّمت في عام 2023م كمروج للسياحة العالمية لجمهورية قيرغيزستان من قبل القنصلية القيرقيزية في دبي.
- كُرّمت في عام 2024م كسفيرة فخرية للثقافة والحرف اليدوية من مدينة NARYN CITY في جمهورية قيرغيزستان.
- كُرّمت في عام 2024م كسفيرة للثقافة والسياحة والتعليم من مدينة Karakol في جمهورية قيرغيزستان.
- حازت على منحة البرنامج الوطني لمنح الثقافة والإبداع 2024م - مجال التأليف والنشر - فئة الترويج والمشاركات المحلية عن كتاب «نكلس وكردانه».
- حائزة على جائزة أفضل كتاب مطبوع عن الإمارات عام 2013م عن كتاب «صياغة السيوف والخناجر في الإمارات».
- حائزة على جائزة النساء المبدعات فئة الأعمال والاقتصاد برعاية الشيخة شمسة بنت سهيل.
- حائزة على جائزة أفضل مشروع قائم بتكريم من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم من مؤسسة محمد بن راشد لدعم المشاريع.
- حائزة على جائزة النجاح في خدمة المجتمع والوطن.

المصادر والمراجع:

1. أعذب الألفاظ في ذاكرة الحفاظ – أشعار قديمة تُنشر لأول مرة – الجزء الأول – جمع وتحقيق حماد الخاطري - 2002م.
2. الحلي الذهبية والفضية – نجلة العزي - دولة قطر - وزارة الإعلام – إدارة السياحة والآثار - إنتاج مؤسسة الشرق للعلاقات العامة.
3. كنوز البحرين – طباعة ونشر مجلس البحرين للترويج والتسويق بواسطة سفارة دولة البحرين – الطبعة الأولى - إشراف دعيج بن سلمان آل خليفة، أحمد عيسى بوبشيت - 1998م.
4. الصناعات الفضية في عُمان - تأليف: روث هول - وزارة التراث القومي والثقافة – سلطنة عُمان - مكتبة / د. برهان الدجاني - 1980م.
5. الحلي في التاريخ والفن - تأليف: عبد الرحمن زكي - الثقافة والآثار القومي - الدار المصرية للتأليف والترجمة - 1965م.
6. زخرفة الفضة والمخطوطات عند المسلمين - مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض - 1988:1989.
7. صياغة الذهب التقليدية في قطر - د. نجلة إسماعيل العزي - مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية - الطبعة الأولى 1988م.
8. رسائل من عصر زايد بن خليفة (1836- 1909م) - إعداد وتحقيق: سعيد محمد بن كراز المهيري - الناشر: المركز الوطني للوثائق والبحوث - وزارة شؤون الرئاسة - 2009م.
9. الصين وفنون الإسلام - تأليف: زكي محمد حسن - مطبوعات المجمع المصري للثقافة العلمية – القاهرة مطبعة المستقبل.
10. المصاغ الشعبي في مصر - علي زين العابدين – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأستاذ بشير زهدي – 1974م.
11. سفرجل - ديوان راشد الخضر - إعداد وتحقيق: سلطان العميمي - الطبعة الثانية – أبوظبي – 2015م.
12. الفضة وتقنيات الصياغة الإسلامية – سعد محمود الجادر - الرباط – 1993م.

13. الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة – تأليف: الدكتورة فاطمة الصايغ – دار الكتاب الجامعي – العين – 2000م.
14. الحلي قديماً في الكويت – تأليف: سلوى المغربي - مركز البحوث والدراسات الكويتية – الكويت – 2004م.
15. الحرف التقليدية العُمانية – نيل ريتشاردسون ومارشيا دور مشروع توثيق التراث الحرفي العماني – برعاية صاحب السمو السيد شهاب بن طارق آل سعيد - وزارة التراث والثقافة سلطنة عُمان - موتيفيت للنشر.
16. تراث الإسلام - الجزء الثاني - تأليف: مجموعة من الباحثين – ترجمة زكي محمد حسن – المركز القومي للترجمة – القاهرة - 2007م.
17. النقود المتداولة في مصر العثمانية – د. أحمد الصاوي - مركز الحضارة العربية – القاهرة - الطبعة العربية الثانية 2008م.
18. ملابس وحلي سكان إمارة أبوظبي قبائل بني ياس (1850-1950) - بثينة سالم سعيد القبيسي - الناشر: نادي تراث الإمارات - مركز زايد للدراسات والبحوث – الطبعة الأولى - 2020م.
19. فن الصاغة – محمود السرجاني - مكتبة علي مظهر.
20. تطور فن المعادن - تأليف: أولكر أرغين صوى - ترجمة وتقديم وتعليق: الصفصافي أحمد القطوري - المشروع القومي للترجمة – المجلس الأعلى للثقافة - 2005م.
21. الأقمشة الشعبية في دولة الإمارات العربية - إبراهيم محمد صالح العوضي - إصدارات معهد الشارقة للتراث.
22. الأزياء والزينة في دولة الإمارات العربية المتحدة – عبد العزيز عبد الرحمن المسلم – نادي تراث الإمارات –أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة.
23. مجوهرات نساء الإمارات في بيت البنات – إعداد النص والتدقيق: رفيعة عبيد غباش، الدكتورة مريم سلطان لوتاه - مركز دراسات المرأة - متحف المرأة – مركز حمدان بن محمد لإحياء التراث - دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة – الطبعة الأولى 2015م.

الخاتمة

○ يعتبر كتاب «نكلس وكردانه» نقلاً حياً ومباشراً ومستمراً عبر الأجيال منذ القرن التاسع عشر إلى القرن الحادي والعشرين للورش التقليدية التي أنتجت أثمن وأجمل الحلي الشعبية في شبه الجزيرة العربية، حيث يكشف الكتاب يوميات الصاغة في الورش التقليدية، ويُعد تجسيداً لحياة العوائل التي تربعت وافترشت الرمال للقيام بعملية طرق وزخرفة الصفائح المعدنية من الذهب والفضة، وكذلك يعتبر تصويراً حياً لأدواتهم البسيطة والزوايا التي توزع فيها أفراد الأسرة في الورش المنزلية والتعاونيات الأسرية، التي أتقن فيها الحرفيون الفنون اليدوية والزخرفية لتزيين الحلي الشعبية، لذلك كان الاعتماد الأكبر في تدوين الحقائق على ذاكرة الكاتبة في الورش الحية، التي ترعرعت في زواياها، وحفظت تفاصيل الحرفة من خلال تفاعلها مع أصحاب المهنة من أسرتها الحرفية، واقتصر دور المراجع فقط على توثيق المصداقية العلمية والتاريخية وإجراء المقارنة بين تفاصيل العمل في الورش المحلية، وربطها بتاريخ التقنيات في الحضارات العالمية القديمة، أما زيارتنا المتحفية فكانت لتتبع الآثار التي تركها الأجداد من المقتنيات التي صنعها الصاغة في شبه الجزيرة العربية والحضارات العالمية وتقديمها كأدلة وشواهد على هوية تلك الحرفة العريقة.

○ وعلى القارئ أن يدرك أن كتاب «نكلس وكردانه» يمثل ورشة حية تتصف بالشمولية في تنوع محاوره، وتنوع أهدافه، فالشمولية عنصر مهم يجب مراعاته في جميع المجالات والتخصصات، حيث يدعم ذلك الوصول إلى تفاصيل وحيثيات الموضوع المستهدف، فلقد أطلقنا عنان قدراتنا وإمكانياتنا الفكرية والأدبية والحرفية لحفظ جميع ما يحيط بالحرفة، وحفظها في قالب متنوع ومتجانس في آن واحد، بدأ بدراسة حياة الشخوص الذين مارسوا تلك الحرفة، والوسطاء والتجار الذين موّلوا نشاطهم الحرفي، والأحداث والروايات البطولية التي نسجت لتنتهي بقطع فنية ثمينة تحمل رموز العراقة العربية والإسلامية والعالمية معاً

[1] • الجبابر ومفردها الجبيرة، هو الخاتم الذي يلبس في الإبهام، ويطلق عليه الرايبة وتحلى أحياناً بحجر صغير، وخاتم الخنصر يسمى الخنصر، ويكون مزيناً بالزخارف والنقوش في الواجهة، ويستدق عند الأطراف، أما الإصبع البنصر فيلبس فيه خاتم فصوص، ويتكون عادة من قطعة مستديرة منقوشة، ويطلق عليه البنصر، ويطلق على خواتم إصبع الوسطى بو لوقة - أبو مضلالة – بوسبلة، ويزين إصبع السبابة: بالمرامي – والحيسة – أو الشاهد، وشكله بيضاوي مدبب يشبه ورقة التوت، وقد يزين بفص أو حجر ملون أو الزجاج. والحيس هي خواتم رقيقة مفرقة تشبه خاتم الزواج (الدبلة) ومفرد كل منها يسمى (حيسة).

وتكشف الأبيات أن الصاغة كانوا يقايضون أفراد المجتمع بالمنتجات التي يصنعونها كالخواتم بما يسد حاجتهم الغذائية، كما كانوا يسدون ديونهم بتلك المنتجات إذا لم يكن لديهم السيولة المالية.

- أعذب الألفاظ من ذاكرة الحفاظ، جمع وتحقيق حماد الخاطري، ص 255.

[2] نجلة العزي، الحلي الذهبية والفضية، كنوز متحف قطر الوطني، وزارة الإعلام، إدارة السياحة والآثار، مؤسسة الشرق للعلاقات العامة، ص 6:4.

[3] روث هول، الصناعات الفضية في عُمان – سلطنة عُمان وزارة التراث القومي والثقافة، 1980م، ص 16.

[4] كنوز البحرين، مرجع سابق، ص 33.

[5] روث هول، الصناعات الفضية في عَمان، مرجع سابق، ص 6-8.

[6] زخرفة الفضة والمخطوطات عند المسلمين، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1988-1989، ص 153

[7]الفولك: لفظ يطلق على قصاصات معدنية تزين المصاغ في ورش الصاغة، الصائغة شيخة عبد الرحمن، دبي.

يتم تقطيع صفائح الفضة بأشكال هندسية دائرية أو التي تشبه الماسة، ثم يتم لحامها على سطح الحلية.

[8] أعذب الألفاظ من ذاكرة الحفاظ، مرجع سابق، ص 280.

[9] د. نجلة إسماعيل العزي، صياغة الذهب التقليدية في قطر، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربي، ص 27..

[10] روث هول، الصناعات الفضية في عمان، مرجع سابق، ص 32.

[11] تخصص الصائغ الإماراتي عبدالله راشد محمد بصناعة المداخ من الذهب والعاج والسلاسل في إمارة دبي، مقابلة شخصية تاجر التحف عبدالله الجابر، 2007م.

[12] (1) إعداد وتحقيق سعيد محمد بن كراز المهيري، رسائل من عصر زايد بن خليفه (1836- 1909م)، وزارة شؤون الرئاسة، المركز الوطني للوثائق والبحوث، ص 315.

[13] (2) حماد الخاطري، أعذب الألفاظ من ذاكرة الحفاظ، مرجع سابق، ص 239.

[14] تذكر الإخبارية شيخة أن والدها الصائغ عبد الرحمن، الصائغ الخاص لزايد بن خليفة آل نهيان صاغ في القرن التاسع عشر بعض الحلي الذهبية لتزيين خيل الشيخ زايد بن خليفة، وكانت عبارة عن حذوة حصان من الذهب، بالإضافة إلى سرج من ذهب زُيّن به ظهر الخيل، كما صنع للخيل مرتعشة من ذهب تتدلى من عنقه ترتعش عند حركته، فالخيول الأصيلة يكرمها صاحبها بحلي ثمينة من الذهب والفضة.

[15] حماد الخاطري، أعذب الألفاظ من ذاكرة الحفاظ، مرجع سابق، ص 226: 227.

[16] زكي محمد حسن، الصين وفنون الإسلام، مطبوعات المجمع المصري للثقافة العلمية، ص 5:6.

[17] كنوز البحرين، مرجع سابق، ص 12

[18] مقابلة شخصية مع حفيد فاطمة باقر – أحمد أيوب – دبي 202

[19] إعداد وتحقيق سلطان العميمي، ديوان راشد الخضر، الطبعة الثانية، ص 220.

[20] نجلة إسماعيل – صياغة الذهب التقليدية في قطر، مرجع سابق، ص 27.

- وذكر المغفور له الصائغ عبدالله راشد محمد أن افتقار المجتمع إلى السيولة المالية دفع الكثير من أفراد المجتمع إلى المقايضة بالحلي التي يصنعها أفراد أسرته من الصاغة بالتمور ومنتجات الألبان والقمح، وكما يذكر أن والدته الصائغة مريم بنت خميس كانت تقايض النساء البدويات ببعض الخواتم والحلي والعقود مقابل ما لديهن من مؤونة غذائية ومواشٍ وأغنام.

[21] نجلة إسماعيل – صياغة الذهب التقليدية في قطر، مرجع سابق، ص 27.

- وذكر المغفور له الصائغ عبدالله راشد محمد أن افتقار المجتمع إلى السيولة المالية دفع الكثير من أفراد المجتمع إلى المقايضة بالحلي التي يصنعها أفراد أسرته من الصاغة بالتمور ومنتجات الألبان والقمح، وكما يذكر أن والدته الصائغة مريم بنت خميس كانت تقايض النساء البدويات ببعض الخواتم والحلي والعقود مقابل ما لديهن من مؤونة غذائية ومواشٍ وأغنام.

[22] سعد محمود الجادر، الفضة وتقنيات الصياغة الإسلامية، الرباط، ص 41.

[23] روث هول، الصناعات الفضية في عُمان، مرجع سابق، ص 28.

[24] سمي الريال باسم ماريا تيريزا إمبراطورة النمسا، ونقش على وجهي العملة حرفي «f .s» اللذين يظهران تحت الصورة تاريخ وفاة ماريا تيريزا عام 1780م، نقش في الجانب الآخر من العملة ماريا تيريزا، دخلت فضة عملة ماريا تيريزا في صناعة العقود التي تتدلى منها، ويتخللها الخرز المصنوع من الفضة، ويتوسطها صحن دائري منقوش عليه آية الكرسي، ويطلق عليها البرقصي.

[25] يطلق على ورشة صياغة الذهب مسمى (الدكَّان)، حيث كان دكان والدي عبدالله راشد محمد في منزلنا في منطقة الراشدية بدبي نموذجاً حياً لحرفة صياغة الذهب، كما يطلق اسم (دكَّان) على المحلات التجارية لمختلف البضائع

[26] سعد محمود الجادر، الفضة وتقنيات الصياغة الإسلامية، مرجع سابق، ص 92.

[27] سعد محمود الجادر، الفضة وتقنيات الصياغة الإسلامية، مرجع سابق 88.

[28] سعد محمود الجادر، الفضة وتقنيات الصياغة الإسلامية، مرجع سابق. ص 93.